يتبين به سعة الفقه الإسلامي ، وأن اختلاف علمائنا رحمة والأخذ من متنوع مذاهبهم نعمة

(ومنها) ردّ المزاعم القائلة بأن الإسلام لا يلتقي مع حاجة البشر ، ولا يبحث فيما يتجدّد من شؤون الزمن . على أن الواقع أن بعض فقهائنا قد بحثوا في بعض ما ظهر في عصرنا من الشؤون؛ فهذا الفقيه الكبير الأستاذ الشيخ محمد بخيت قد ألف كتاباً أجاز فيه العمل بخبر البرق (التلغراف) سماه (إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة) ومثله الأستاذ الشهير الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي في كتابه (إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق) وقد أثبت أستاذنا القاسمي فتاوى لاثني عشر عالماً من أشهر علماء العصر بجواز قبول خبر البرق في إثبات الأهلة وغيرها ، والمذياع والهاتف (الراديو والتلفون) كلاهما أوضح في الدلالة وأوثق من خبر البرق ، لأن التلغراف يستفاد مضمونه من تلك النّقَرات التي ينقرها العامل فيفهم خبره ويترجم المراد منه ، بخلاف الكلام بالراديو والهاتف فهو كلام صحيح صريح ، وإنما يسمع من يلقى إليه الخبر بهما كلام المتكلم نفسه لا صداه ، وما أظن أحداً ممن أجاز العمل بخبر البرق في الديانات والمعاملات يتردد في جواز العمل بالمذياع والهاتف فيهما لما قدمنا ؛ وهو أقوى من خبر الكتاب الموثوق الذي قبله العلماء ، وأبعد عن التزوير بكثير . وقد كتب النبي (ص) كتبه إلى الآفاق ، وبلغ بها دعوته إلى الملوك . وقامت الحجة عليهم وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، والملوك العادلون ، فقد أرسلوا كتبهم ، وقلدوا القضاة والنواب والأمراء عنهم بالكتابة . وعلى ذلك جرت سنة التابعين وأئمة الشرع وفقهاء الأمة ، وما أجدر العلماء الآن بإذاعة القرآن والدعوة الإسلامية بالراديو — كما يفعل الإمام المراغي شيخ الجامع الأزهر — لتعم الكرة الأرضية ، وتقوم حجة الله على العالمين

فإلى إنشاء هذه المجلة الكبرى الشاملة لكل ما حدث إلى الآن من الوسائل التي تعامل بها العالم أجمع في كافة أنحاء المعمور ، وإلى تفصيل ما نشأ عن هذه الوسائل من مسائل وأحكام فقهية ، ندعو أعلام الأمة ، وفقهاء العصر ، وبالله التوفيق .

(دمشق) محمد بهجة البيطار

ابن حـــوقل

للأســتاذ ميخائيل عواد

يجد المتوغّل في تاريخ العرب حركةً علميةً واسعة النطاق ، امتدّت أحقاباً من الزمن ، وهي كلها جديرة بالعناية والدرس ، وحَرِيّة بأن تتناولها الأقلام في وقتنا لتجلو مختلف صفحاتها التي كانت إحداها السياحة في البلدان والضرب في مختلف الأصقاع

لقد امتهن بعض العرب هذا النوع من الحياة، فكان منهم من نسميه بالتاجر الرحالة ... بل إن فريقاً آخر منهم اتخذها علماً، يعلو به ويكتب فيه ، وينشر لواءه شرقاً وغرباً . . . ذاك هو الجغرافيّ المخطط للبلدان . وليس بين الفريقين من مدًى واسع ، فإن كليهما يستكشف مجاهل الأمكنة والبقاع ، ويتولّى البحث في أحوال الأمم التي يتردد إلى مواطنها ، فيدرس طباعها ويتعرف خواصها ويتصل بأسباب ثروتها ، فيصف تربتها وغلاّتها وطرقها ، إلى ما هنالك من مرافق عامة وخاصة .

هذه كلمةٌ نمهّد بها لكلامنا على الرّحالة العربي الشهير : « ابن حوقل » الذي ذاع صيته في القرن الرابع للهجرة ، والذي بالرغم من ذلك لم يَخلُ مجال البحث عنه من مصاعب وغموض ، نظراً إلى أن ما بين أيدينا اليوم من المصادر القديمة لم يورد بشأن منشأه وحياته ووفاته إلا النزر اليسير .

حياته

هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي ، ولد ببغداد[1] ، ونشأ بها على اتفاق أغلب المؤرخين ، وذلك في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وأقبل على التجول في البلاد الإسلامية ، متعاطياً التجارة ، لمكانتها الخاصة في الكسب ، ولما تقتضيه من التنقّل والتجوّل ، وهي الناحية التي شُغِفَ بها فتملّكته . وصادف عند ابتدائه في تجواله عام ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) ، أن انقطع المسعودي الرحالة الشهير عن

(١) اختلف المؤرخون في تعيين محل ولادته ، فمنهم من قال إنه بغداد وآخر الموصل ، وثالث نصيبين .

الارتحال ولزم داره ، وعلى هذا فإن ابن حوقل قد خلف المسعودى فى هذا المضمار ... وانتهى رحلتنا من رحلته الواسعة سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) . فيكون بهذا قد أمضى ثمانية وعشرين عاماً فى حلّ وارتحال، زار خلالها أقاصى البلدان، فساح فى العالم الإسلامى شرقاً وغرباً من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى ، ووصف بلاد البربر وصفاً جميلاً ، كما أنه جال فى بلاد الأندلس متنقلاً بين كثير من مدنها المشهورة . دخل صقلية وأسهب فى الكلام عليها ، وجاب ربوع مصر وسورية والعراق وفارس ... ودوّن أخبار رحلته سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، ضمن كتابه المسمى بـ « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » .

قال فيه عن نفسه : « ... بدأتُ سفرى هذا من مدينة السلام — يوم الخميس — لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة ... وأنا من حداثة السن وغرّته، وفى عنفوان الشباب وسكرته ، قوىّ البضاعة ، ظاهر الاستطاعة ...[1] »

إلى أن يقول : « ... وقد ذكرتُ فى آخر كتابى هذا كيف تعاورتنى الأسفار ، واقتطعتنى فى البر دون ركوب البحار ، إلى أن سلكتُ وجه الأرض بأجمعه فى طولها ، وقطعتُ وتر الشمس على ظهرها ...[2] » .

ثم يصف لنا خطته فى تأليف كتابه فيقول : « ... وقد جررتُ ذكر المسافات ، واستوفيتُ صور المدن وسائر ما وجب ذكره ... وقد فصّلتُ بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً وكورةً كورةً لكل عمل . وبدأت بذكر ديار العرب ، فجعلتها إقليماً واحداً ، لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى ، وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ...[3] » .

ويتضح لنا من دراسة مصنّفه أنه اقتصر على ذكر صفات الممالك الإسلامية ، ولم يتعرض لغيرها متنصلاً من ذلك بقوله فى كتابه المذكور : « ... أما بلاد النصارى والحبشة ، فلم أتكلم عليها إلا يسيراً ، لأن تولى بالحكمة والدين والعدل وانتظام الأحكام يأبى أن أثنى عليهم بشىء من ذلك[1] » .

ابن حوقل يتعاطى التجسس

ذكر العلامة دوزى فى كتابه : « تاريخ إسلام أسبانيا » أن ابن حوقل كان عيناً للفاطميين يتعاطى التجسس لمصلحتهم . ولا شك أن يكون قد نال حظوتهم والتفاتهم أثناء نزوله بين ظهرانيهم ، فسهلوا له شؤون رحلته وتجارته ؛ وقد تمخضت هذه العلاقة عن تبادل الثقة ، فوجدوا فيه خير مثال للدعاية ، وهو ذاك الرحالة الشهير الذى يجوب بلدان الأرض فينشر دعوتهم على أحسن ما يُرام !

كتاب « المسالك والممالك »

جاء فى مقدمة الطبعة الأولى « للمسالك والممالك » ما نصه : « هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، وذكر الأقاليم والبلدان ، على مرّ الدهور والأزمان ، وطبائع أهلها ، وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها ، وذكر الأنهار الكبار ، واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجار ، مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار ، تأليف أبى القسم بن حوقل ... مُعوّل فيما جمعه على كتاب الإمام العالِم أبى القاسم محمد بن خرداذبة ، وقدامة بن جعفر الكاتب ...[2] » .

وقد قدم كتابه هذا إلى أبى السرىّ الحسن بن الفضل بن أبى السرى الأصبهانى . قال ابن حوقل : « ... وقد عملتُ له كتابى هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها فى الطول والعرض وأقاليم البلدان ، ومحل الغامر منها والعمران ، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها ... وكان مما حضنى على تأليفه ، وحثنى على تصنيفه ، وجذبنى إلى رسمه ، أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً

(١) المسالك والممالك لابن حوقل « طبعة كريمرز فى ليدن سنة ١٩٣٨ : المقدمة ص ٣ — ٤ »

(٢) المسالك والممالك « المقدمة : ص ٤ »

(٣) المسالك والممالك « ص ٥ — ٦ »

(١) المسالك والممالك « ص ١٠ »

(٢) مقدمة « المسالك والممالك » طبعة دى غويه فى ليدن سنة ١٨٧٢ ، وطبعة كريمرز (حاشية الصفحة ١) .

بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك . . . وتوعرت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة ... فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، ومارأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب ... وأعانني عليه تواصل السفر وارتحالى عن وطنى مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهوة لبلوغ الوطر ...[١] » .

شُغف ابن حوقل أثناء تجواله بدرس مؤلفات المتقدمين كالجيهانى وابن خرداذبة وقدامة . وكان لدى إحدى عوداته إلى بغداد عام ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) قد لقى الاصطخرى (صاحب كتاب المسالك والممالك ، الذى صنفه نحو تلك السنة أيضاً) . فاطلع ابن حوقل على كتاب الاصطخرى ، وانكشفت له مواطن الضعف فيه ، وكان الاصطخرى قد طلب إليه أن يُراجع مصنفه ويهذب بعض خرائطه الجغرافية ، لكن ابن حوقل أبى ذلك ، واعتزم كتابة هذا المصنف « المسالك والممالك» من جديد ، فأتمه على ما أراد ، حيث ضمنه مشاهداته ودراساته الخاصة وجعله باسمه

وهذا ما حدا بالكثير من المؤرخين إلى أن يقولوا كلهم فى مصنف ابن حوقل ويعتبروه صورة ثانية لكتاب الاصطخرى مع زيادات آتية من دراساته ومشاهداته الخاصة التى اكتسبها أثناء رحلته ، فأضافها إليه حينما عدل عن تصحيح كتاب الاصطخرى .

وقد أضاف أبو الفداء فى جغرافيته المسماة تقويم البلدان أن « كتاب ابن حوقل مطول ، ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً ، غير أنه لم يضبط الأسماء ، وكذلك لم يذكر الأطوال ولا العروض وصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة ...[٢] »

وجاراه فى هذا القول الحاج خليفة صاحب كشف الظنون[٣]

ومهما يكن من أمر فإن هذا السفر الجليل عظيم الفائدة جدير بالدرس والاستقصاء ، لاختصاصه فى الجغرافية دون سواها فهو يحوى وصفاً دقيقاً لأغلب الأقطار . ولقد أفادنا بصورة خاصة عن مصر وسورية والعراق ، وتُعدّ بحوثه فى المغرب وأسبانية وصقلية من المصادر الرئيسية ، ناهيك بالمعلومات القيمة عن بقية الأصقاع والبلدان والمسافات ، كما أنه لم ينس أن يُعطينا فكرة عن ثروة البلاد وتجارة أهاليها ، وجباية الضرائب إلى غير ذلك .

طبعات الكتاب

نالَ هذا المصنّف اهتماماً حسناً ، فظهرت له عدّة طبعات قام بها طائفة من المستشرقين ، والفضل الأوفر فى ذلك يعود إلى المستشرق الكبير دى غويه ، وسنأتى على ذكر هذه الطبعات فيما يلى :

أولاً : الطبعات الناقصة

١ — الطبعة الأولى : نشرها المستشرق دى غويه De Gœje الهولندى سنة ١٨٧٣ فى ليدن ، معتمداً فى ذلك على نسختى خزانتى ليدن وأكسفورد ، كما أنه اعتمد على النسخة العربية المرقومة ٢٢١٤ فى خزانة كتب باريس الأهلية ، تلك التى أطلَقَ عليها فى طبعته اسم الموجز الباريسى Epitome parisiemsis وهو نص النسخة الاستنبولية . وتعتبر هذه الطبعة الحلقة الثانية من مجموعة « المكتبة الجغرافية العربية » Bibliotheca Géographorum Arabicorum والمعلوم أن هذه الطبعة قد نفدت منذ سنين عديدة وأضحت نسخها من نوادر الكتب

٢ — الطبعة الثانية : اعتنى بنشرها المستشرق كريمرز Kramers بمطبعة بريل فى ليدن سنة ١٩٣٨ ، وقد اعتمد بصورة خاصة على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ ، المحفوظة فى خزانة السراى العتيق فى استنبول ، وعلى صورها ، كما أنه قابل نص الطبعة الأولى المذكورة آنفاً ، وبعض المصادر الأخرى ، فجاءت بنتيجة هذه التدقيقات والمقابلات طبعة متقنة فيها وافر التحقيق، ومحتوى على كل ما هو موجود الآن من مادة كتاب ابن حوقل فأصبحت متكافئة مع الطبعة الأولى ، كما أنها زينت بالخرائط ذات الشروح والتعاليق . وقد ظهر من هذه الطبعة حتى الآن : القسم الأول الذى يتقوم من ٢٤٧ صفحة ، وسيليه الثانى والثالث وعنوانها الناشر بـ « كتاب صورة الأرض » تأليف أبى القسم ابن حوقل النصيبى

(١) المسالك والممالك (المقدمة ص ٢ — ٣)

(٢) تقويم البلدان لأبي الفداء (طبعة باريس سنة ١٨٤٠ ، ص ١)

(٣) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون للحاج خليفة (طبعة فلوجل فى ليبسك ، ٥ : ٥١٠) .

٣ — وكان هذا الكتاب قد تُرجم إلى اللغة الفارسية ، وعن هذه اللغة ترجمه إلى الإنجليزية السير ويلم أوزيلى Ouseley وطبعه سنة ١٨٠٠ فى لندن بعنوان « الجغرافية الشرقية لابن حوقل » Kitab al Mesalek wal Memalek : The Oriental Géography of Ebn Haukal

وهى تقع فى ٣٦ + ٣٢٧ ص ، وخريطة

ثانياً : الطبعات الجزئية

١ — القسم المختص بالعراق العجمى ، اعتنى بنشره المستشرق هاكر[1] Hamaker فى ليدن سنة ١٨٢٢ ، ويقع هذا القسم فى ست صفحات وترجمته اللاتينية فى ثمان ، وعنونت بـ « خلاصة أخبار المسافر والعجم فى معرفة بلاد عراق العجم »

٢ — القسم المختص ببلاد السند ، طبع فى بون سنة ١٨٣٨ مع ترجمة لاتينية

٣ — القسم المختص بإفريقية ، طبع فى باريس سنة ١٨٤٢

٤ — القسم المختص بمدينة بَرْقَم (عاصمة جزيرة صقلية) ، طبع فى باريس سنة ١٨٤٥ ، مع ترجمة فرنسية ، بعناية المستشرق الإيطالى أمارى Amari

٥ — القسم المختص بسجستان نشره المستشرق بلاشر Blachère فى مجموعه المسمى « منتخبات من آثار الجغرافيين العرب فى القرون الوسطى » Extraits des principaux Géographes Arabes : du Moyen Age ، المطبوع بالعربية مع حواش وملاحظات بالفرنسية ، سنة ١٩٣٢ فى بيروت (ص ١٣٦ـ١٤٨)

٦ — ولعل هنالك بعض الترجمات أو الطبعات الجزئية مما لم نتوفق إلى الوقوف عليها لندوّنها ، فضربنا عنها صفحاً .

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) قام المستشرق هاكر بجمع كل ما كتبه جغرافيو العرب عن البلاد المعروفة بعراق العجم ، ونشر ذلك فى مجلد كبير مع ترجمة وتعاليق وشروح باللاتينية .